

دراسة مقارنة بين اللغة الشعرية الموزونة في الثقافة العربية ونظيرتها في الثقافة الأنجليزية

د. سعاد أمغار

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة الكشف عن بعض تجليات البناء الوزني في لغة الشعريتين العربية الفصحى والأنجليزية ، والمقارنة بين خصوصيات هذا البناء الوزني لمعرفة مظاهر التقارب أو القطيعة ، ومدى تفاوت هاتين اللغتين في تطويع اللغة الشعرية الموزونة.

وقبل الكشف عن هذه التجليات ، يجب التنبيه على أن هذه المقارنة قد استمدت مشروعيتها من وجود عناصر إيقاعية مشتركة في اللغة الشعرية وأخرى متأثرة بطبيعة اللغة نفسها. وقد أوضح الفلاسفة هذا الجانب المشترك بين الأمم منذ القديم ، ولعل أقدم نظرية أشارت إلى الوزن أو الإيقاع الشعري في سياق الكليات المشتركة (١) بين الثقافات هي النظرية الأرسطية ، فبالرغم من أنها لم تمنحنا تعريفا واضحا للوزن ، نجدها تؤكد أن الوزن خصيصة موسيقية لا يمكن لفن الشعر الاستغناء عنها. وهذا ما سيؤكد أيضا العديد من الفلاسفة المسلمين وعلى رأسهم الفارابي الذي انضرد بإعطاء الإيقاع تعريفا يهتم بالجانب الموسيقي والعروضي في قوله: ((فقوام الشعر وجوهره عند القدماء هو أن يكون قولاً مؤلفاً مما يحاكي الأمر، وأن يكون مقسوماً بأجزاء ينطق بها في أزمنة متساوية)) (٢) ووجود هذه الرؤية الشاملة للإيقاع سمحت بفتح باب المقارنة بين خصوصيات التجلي الإيقاعي/ الوزني في اللغة الشعرية للثقافة العربية والثقافة الإنجليزية ، مع العلم أن الإيقاع الشعري يقاس بمعايير خاصة، تتمثل - بالنسبة للشعرية العربية - في المقاييس التي يحددها علم العروض الذي استنبطه الخليل بن أحمد الفراهيدي من خلال استقراؤه للشعر العربي. أما بالنسبة للثقافة الأنجليزية ، فإن إيقاع منظومتها الشعرية يخضع لضوابط استقاها الشعراء من الأنظمة الإيقاعية اللاتينية والإغريقية والفرنسية خلال مراحل مختلفة.

ويقتضي الخوض في دراسة التجلي الوزني في لغة الشعريتين مبدئياً المعرفة القبلية لطريقة تحليل هذا الوزن والكشف عن أبنيته الإيقاعية وعن القوانين المتحكممة فيه ، ثم استعمال لغة اصطلاحية دقيقة ومحددة لتسهيل عملية الوصف والتحليل. وبما أن المجال لا يسمح في هذه الدراسة المقتضبة ببسط الحديث عن كيفية تركيب المكونات الإيقاعية البانية للأوزان سأكتفي بالإشارة إلى كل ذلك خلال الحديث عن مستويات المقارنة ومدخلها.

١ - مدخل القراءة الوزنية التقطيعية :

تكشف المقارنة بين القراءة الوزنية التقطيعية في الشعريتين العربية والأنجليزية عن وجود مستويات مختلفة تتقارب فيها لغة الشعريتين إلى حد التطابق أو تختلف إلى حد القطيعة. إن الشعريتين العربية والأنجليزية كليهما تعتمدان على تقنية أو طريقة ما تمكنهما من تحليل البيت الشعري إيقاعياً. ويكمن سر هذا التطابق في تشابه بعض صفات المكونات الإيقاعية في الشعريتين سواء في المستوى البسيط أو المركب . حيث تنقسم هذه المكونات فيهما إلى مكونات ثنائية و ثلاثية ، ويتجلى ذلك في اعتماد اللغة الشعرية العربية على السبب (مكون ثنائي) مع الوند (مكون ثلاثي) باعتبارهما مكونين إيقاعيين أوليين ، وهذا شبيه باعتماد اللغة الشعرية الأنجليزية على المقطع المنبور مع مقطع واحد غير منبور (مكون ثنائي) ، أو مع مقطعين غير منبورين (مكون ثلاثي). ويتجلى التطابق أيضا في كون الشعريتين تجمعان المكونات الإيقاعية الأولية ضمن وحدات إيقاعية واسطة تسمى في الشعرية العربية بالأجزاء (أوالتفاعيل) ، وفي الشعرية

الأنجليزية بالأقدام جمع قدم (Foot).

بينما تختلف الشعرية في نظريتهما إلى الوزن الإيقاعي نفسه ، فلغة الشعر العربي ترى أن خصوصية الوزن تتمثل في تساوي الحركات في الزمن والترتيب ، مُشكلةً بذلك وحدات إيقاعية تتكرر بنفس الطول والترتيب ، خلافاً للغة الشعر الأنجليزي التي ترى أن إيقاع الشعر يتأسس على المقاطع الصوتية المتفاوتة الطول والقوة والحدة. فقد استعمل العرب قديماً لفظة المتر أو المَتر وتعني الجذب والقطع (٢) لوصف إيقاع الشعر ومكوناته المحكمة ، ثم شاع مصطلح (الوزن) بعد الخليل في وصف العروضيين لهذا الإيقاع. أما النقاد الأنجليزيون فيستعملون مصطلح (Meter) لوصف مقدار المسافة (Mesure) (٤). وهذا أمر بيده يفسره كون الكلمة مستعارة من الثقافة اليونانية بمعنى (Measure) وكانت هذه اللفظة الاصطلاحية تستعمل لديهم لقياس زمان النطق بالمقاطع حسب الطول والقصر، لا باعتبار النبر الذي يعد المكون الأساسي لإيقاع الشعر الأنجليزي. وتختلف الشعرية في النظر إلى طبيعة المساحة التي يشغلها الوزن وكيفية توزيعه داخل البيت أو السطر الشعري. فالشعرية العربية تعتمد على التقسيم السمطي داخل البيت، وأعني بذلك أنها تقسم الوحدات الإيقاعية بشكل متناصف بين شطري البيت. في حين تشكل عدد الوحدات الإيقاعية أو الأقدام في الشعرية الأنجليزية مساحة السطر الشعري.

ويتبين من تتبع آليات اشتغال النظام العروضي الخليلي في الشعرية العربية ، أنه خصص للصور الإيقاعية صيغاً شبه صرفية تترجمها سمعياً وتحفظ لها خصوصيتها ، وتمكنها في الحين نفسه من البقاء مستقلة عروضياً بحدودها عن بدايات عناصر الكلام ونهايته وملتحمة أو متصلة اتصالاً تسلسلياً مع بعضها البعض (٥) لبناء الجملة العروضية، وهذا ما تفتقده اللغة الشعرية الأنجليزية التي تظهر صورها الإيقاعية منفصلة الأجزاء ، ولا يمكن استحضارها ذهنياً إلا بعد سماع النسق الإيقاعي كاملاً مرات ومرات.

٢ - مدخل الأجناس الوزنية :

تكمُن الخصيصة المشتركة الأولى بين لغة الشعرية العربية والأنجليزية في وجود أجناس وزنية لها صور نظرية مجردة ، وهو ما يسمى في الشعرية العربية بالأوزان الدائرية (أي الأوزان التي جمعها الخليل نظرياً في دوائر عروضية) (٦) ، وفي الشعرية الأنجليزية بالأوزان القياسية (Regular Metre). وتتجلى معرفة هذه الصور في كونها تمكن الدارس أثناء اشتغاله وتحليله لها، من الاحتكام إلى مرجع نظري يعود إليه كلما انتقل من وزن مستعمل إلى آخر. وتكمُن الخصيصة الثانية في حرص كل من الشعرية على حصر عدد أجزاء البيت أو السطر، وتحديد طريقتي التناهي العددي الأعلى والأدنى في البناء الوزني ، فلغة الشعر العربي الفصيح تلتزم بعدد معين من الأجزاء (أو تقاعيل) في كل وزن يتراوح بين ثمانية أجزاء وستة أجزاء في حالة التمام، وبين أربعة أجزاء في حالة الجزء الواجب (٧). مثال تردد الأجزاء في لغة الشعر العربي الفصيح وزن الرجز السداسي الأجزاء:

مستقلن مستقلن مستقلن ×× مستقلن مستقلن مستقلن

في حين تحدد لغة الشعر الأنجليزي الوزن في عدد الأقدام حسب تردها في السطر الشعري حيث تتراوح بين قدم واحدة وثمانية أقدام في السطر على الأكثر، من هنا يمكن القول أن طول الأجناس الوزنية أو قصرها في اللغة الشعرية الأنجليزية يتوقف على معرفة كم المقاطع الموجودة في القدم البانية للجنس الوزني نفسه ، ولا يمكن القول بأن النظام الإيقاعي في الشعرية الأنجليزية نظام كمي خالص، لأنه يعتمد على خاصية النبر (٨)، لكن يبقى عدد المقاطع داخل القدم الواحدة هو الذي يتحكم في عدد الأقدام التي يبني منها الوزن. ومعنى هذا أنه حينما يتم تحديد عدد مقاطع القدم (بالنظر إلى نوعها) ، ثم عدد الأقدام في السطر يتم حينها رسم الحدود القصوى للبنية الوزنية. ومثال تردد الأقدام في لغة الشعر الأنجليزي وزن الأيامي الخماسي الأقدام (Iambic Pentameter):

أن لغة الشعر الأنجلزي قلما تحتمل صور وزنية أخرى ممكنة نظريا، كالتروكي (Trochaic Meter) ، والأنبستي (Anapestic Meter) ، والداكتيلي (Dactylic Meter) وغيرها. وبمعنى أدق فإن الشاعر يجد عنتا في تجريب هذه الصور الوزنية وتطويع لغته الشعرية لملاءمتها ، والدليل على ذلك قلة شيوعها في الشعر الأنجلزي الموزون (١٢).

٤ - مدخل تجاوز الأبنية الوزنية ومحاولات التجريب:

يكمن الفرق بين التجلي الاستعمالي للصور الوزنية في الشعريتين العربية والأنجلزية في كون الأولى تعتمد بالأساس على نظام سمثري - كما سبقت الإشارة - من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الصور الوزنية لايمكنها أن تجتمع في المنظومة الشعرية (أي القصيدة) التي يلتزم فيها الشاعر في كل بحر صورة كمية إيقاعية واحدة يختارها مسبقا (١٣) ، بل يعد الإخلال بهذه القاعدة القياسية بمثابة عيب يُخرج المنظومة من حقل الشعرية إلى حقل اللغة النثرية (١٤). في حين يعتمد الشاعر الأنجلزي نظام الأسطر لنظم قصيدته ، كما يمكن أن تأتي الصور الوزنية المختلفة مجتمعة في المنظومة الأنجلزية الواحدة على مستوى الاستعمال ، كاجتماع الوزن الأيامي مع التروكي أو الأيامي مع الأنبستي في قصيدة واحدة ، بل على مستوى السطر الشعري الواحد كما يتضح من خلال هذا المثال الذي يوضح اجتماع القدم التروكية و البيريكة في سطر أيامي واحد:

Thats my/ last dush /ess paint/ed on / the wall
↓ ↓ ↓ ↓ ↓
Trochee Iamb Iamb pyrrhic Iamb

ومثاله على مستوى القصيدة الواحدة :

I did say/yes

; O at /lightning and /lashed/rod

Thou hears me /truer than/tongue com/fess

.Thy /terror. O /Christ. O /God

قدم التروكي: (hour and) ، (Christ. o) ، (tongue com)

قدم الداكتيل: (Thou hears me) ، (truer than) ، (lightning and)

قدم البيون: (Thou knowest the)

وقد اختار بعض الشعراء الأنجلزي كسوينبرن ، وكوبر، وسيدني (١٥) مخالفة القياس الوزني للغة الشعرية الأنجلزية أو الخروج عنه في بعض الأحيان، لما ظهر لهم من خصوصيات إيقاعية جديدة حملتها تشكيلات اللغة الشعرية الموجودة في أشعار الثقافات الأخرى ، إذ تداول بينهم استعمال أوزان ذات الأصول غير الأنجلزية استمدوها من ثقافات شعرية مختلفة ، منها القديمة كالثقافة الإغريقية ، ومنها الثقافات المجاورة جغرافيا كالثقافة الفرنسية والإسبانية (١٦).

ولا يمكن أن نجد مثل هذه الظواهر في الشعرية العربية إلا على مستوى التجريب الفردي لبعض الشعراء أو بسبب خطأ أو بتر في الرواية عند القدماء على اعتبار أن الشعر العربي كان ينشد شفويا قبل وصول مرحلة تدوينه ، فقد

اتفق العلماء على أن المرجعية القياسية في الحكم على أوزان الشعر العربي هي علم العروض الذي استتبطنه الخليل من أشعار القدماء ، ومثال هذا المزج بين الأوزان في القصيدة الواحدة ما ورد في قصيدة الشاعر رزين العروضي المشهورة:

قَرَّبُوا جَمَالَهُمْ لِلرَّحِيلِ غُدُوَّةُ أَحِبَّتْكَ الْأَقْرَبُوكَ

بالإضافة إلى بعض المحاولات التجريبية المقصودة التي تبناها بعض الشعراء وعابها العلماء ، كأشعار أبي العتاهية الذي اعتُبر من الأوائل الذين حاولوا الخروج عن النظام الخليلي لكنه مع ذلك ظل محكوماً بمكونات هذا النظام باعتبار أنه استعمل التفاعيل نفسها ، بل جرب الأوزان التي أهملها الخليل بعد أن استخرجها لعدم استعمال القدماء لها ، كما جاء في قوله:

عُتِبَ مَا لِلخَيْالِ خَبَّرِنِي وَمَالِي
فاعلاتن/فعولن فاعلاتن/فعولن

ومن خلال رصد مجموعة من الأجناس الوزنية في لغة الشعريتين العربية والإنجليزية ، يتبين أن هناك تفاوتاً في مخالفة شعراء كل ثقافة منهما للقواعد المعمول بها أو تجاوزها . فبالرغم من أن ظاهرة الخروج عن المتداول ومحاولة التجديد على مستوى الأبنية الوزنية جمعت بين الشعريتين ، تظل خصوصيات هذه الظاهرة وتجلياتها في كل شعرية منهما مختلفة عما يقابلها في الأخرى . ففي حين تبدو المخالفات في الشعرية العربية متدرجة مع الزمن ، وغنية بتنوعها وتلونها ، نجدتها بالمقابل تبدو معدودة وقليلة في الشعرية الإنجليزية ولا تخرج عن كونها مستمدة من ثقافات شعرية أجنبية . وقد أفرزت الذائقة المتأخرة تجليات متنوعة للبناء الوزني في الشعريتين العربية والإنجليزية ، لكن التحليل النقدي أكد أنها تجليات لم تخرج عن كونها إعادة تشكيل للأبنية الإيقاعية المتداولة ومكوناتها الصغرى ، فكانت النتيجة استضعاف النقاد إياها أو إهمالهم لها .

الهوامش

- ١ ___ نظرية الشعر لدى أبي العلاء المعري بين التصور والإنجاز، ٦٥/١ .
- ٢ ___ جوامع الشعر نقلاً عن نظريات الشعر عند العرب (الجاهلية والصور الإسلامية) ، ص ٢٠٤ .
- ٣ ___ العروض والقافية، ص ٣٧-٧٦ .
- ٤ ___ A Primer of English Verse . p ٢ . وانظر نظرية إيقاع الشعر العربي ، ص ٢٤ .
- ٥ ___ العروض والقافية دراسة في التأسيس والاستدراك ، ص ٩٠ - ٩١ .
- ٦ ___ أعني الأوزان الخمسة عشر في صورتها النظرية أي قبل أن تدخل حيز الاستعمال .
- ٧ ___ لا أتحدث هنا عن النقصان الاختياري كالجُزء في البسيط، والشمطر في الرجز والسريع، والنهك في الرجز والمنسرح .
- ٨ ___ Music and Literature. p ١٧ .
- ٩ ___ A Handbook for the Study of Poetry، p/ ١٨ . Music and Literature. p ٩ / first Principles of Verse. p ٣٨ .
- ١٠ ___ الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ١٣١/ ٢ - ١٣٢ .
- ١١ ___ First Principles of verse. p ٣٥ .
- ١٢ ___ First Principles of Verse. p ٤٢ . / Rhymes and Meters. pp ١٧، ١٨ . / Biographia Literaria. V.II. p ٥٠ .
- ١٣ ___ كأن يختار صورة وزنية واحدة يلتزم فيها صورة كمية واحدة أي التمام أو الجزء أو الشطر أو النهك في وزن الرجز، ثم تصبغ الصورة التي يختارها ملزمة له في القصيدة .
- ١٤ ___ العمدة، ١ / ١٤٠ .

.Dictionary of Poetical Terms, p ١٥A Glossary of Poetical Terms, p ٢٧.

.Dictionary of Poetical Terms, p ١٦.

المصادر والمراجع

- باللغة العربية :

- ١ - الحيوان، للجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر، تحقيق عبد السلام هارون، ط ٢، مطبعة الحلبي- مصر، ١٩٦٥.
- ٢- العقد الفريد، لابن عبد ربه أحمد بن محمد الأندلسي، تحقيق أحمد أمين وزميليه، لجنة التأليف والترجمة والنشر-مصر، ١٩٦٥.
- ٣ - العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني أبي علي الحسن بن رشيق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٥، دار الجيل- لبنان، ١٩٨١.
- ٤-العيون الغامزة على خبايا الرامزة، للدماميني بدر الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، تحقيق الحساني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي، ط ٢- القاهرة، ١٩٨٣.
- ٥-المعيار في أوزان الأشعار والكافي في علم القوافي، أبي بكر بن السراج الشنتريني الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية، ط ٢، الشركة المتحدة للتوزيع - بيروت، د.ت.
- ٦- العروض والقافية دراسة في التأسيس والاستدراك، لمحمد العلمي، ط ١، دار الثقافة الدار البيضاء، ١٩٨٣.
- ٧- فن الشعر، لأرسطو طاليس، ترجمة عبد الرحمان بدوي- مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، ١٩٥٢.
- ٨- موسيقى الشعر، لإبراهيم أنيس، ط ٧، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة، ١٩٩٧.
- ٩- مداخل منهجية لدراسة علمي الخليل العروض والقافية: المنطق الخليلي الخفي، لسعاد أمغار، مطبعة أنفوبرانت - فاس، ٢٠١٢.
- ١٠- نظريات الشعر عند العرب (الجاهلية والعصور الإسلامية)، لمصطفى الجوزو، ط ١، دار الطليعة للطباعة والنشر- بيروت، ١٩٨١.
- ١١- نظرية إيقاع الشعر العربي، لمحمد العياشي، المطبعة المصرية - تونس، ١٩٧٦.
- ١٢- نظرية الشعر لدى أبي العلاء المعري بين التصور والإنجاز، لمحمد الدناي، مطبعة أنفوبرانت- فاس، ٢٠١٢.

- باللغة الإنجليزية والفرنسية :

- ١٢ Calvin S. Brown. Music and Literature: A comparison of the Arts (Georgia: The University of Georgia - Press, ١٩٦٣).
- ١٤ (Henri Meschonnic, Critique du Rythme (Verdier - ١٩٨٢).
- ١٥ Horatio G. Winslow. Rhymes and Meters: A practical Manual for Versifiers (New York: Editor Pub. - Co ١٩٠٩).
- ١٦ (J. R. Harmsworth, Dictionary of Poetical Terms (Canada : Coles Publishing Company Limited - ١٩٧٢).
- ١٧ ٦th Pub.(London:The Lynn Altenbernd and Leslie L .Lewis. A Handbook for the Study of Poetry - Macmillan Company, ١٩٦٦).
- ١٨ (Maurice Grammant, Petit Traité de versification Française (Librairy Armand Colin- ١٩٦٥).
- ١٩ (U.S.A: Holt, Renhart and Winstan. inc .M.H.Abrams. A Glossary of Literary Terms- ١٩٨٥).

- ٢٠ - Robert Hillyer. First Principals of verse (Boston : the writer. INC - ١٩٥٧).
- ٢١ - S.T. Coleridge. Biographia Literaria, V.II. (London- ١٩٦٨).